التصوير الإسلامي

م.م. رويدة وعدالله محمد

إهتم الباحثون في موضوع التصوير الإسلامي ومكانته في الفن الإسلامي إهتماماً علمياً وفنياً دفعهم إلى البحث عن أصوله ومصادره وخصائصه وأصالته بمقارنته بالفنون الأخرى عند الأمم والشعوب من غير المسلمين وخصوصاً عندما وصل فن التصوير أوج عظمته في العصور الإسلامية المتأخرة إبتداءً من القرن التاسع الميلادي حين أصبح التصوير فناً ذا طابع مميز يعكس ذوق الفنان المسلم ويصور قدرته الفنية وإبداعه.

ولما كان الفن بشكل عام صوراً منتزعة من واقع للحياة الطبيعية أو إنعكاساً لا شعورياً لوجدان وواقع الفنان ذاته كانت العلاقة بينه بهذا الإعتبار وبين الإسلام بوصفه فلسفة للحياة وعقيدة للإنسان المسلم ونظاماً للمجتمع الجديد موضع إختلاف وإجتهاد في الرأي بين جمهرة الباحثين والفنانين فمن قائل بأن الإسلام قد حرم التصوير وآخر معتقدات بأن الإسلام قد حلله وشجعه، ولعل مرد هذا الإختلاف والتباين في الآراء وتحديد المواقف يعود إلى عدم ورود نص صريح في القرآن الكريم أو الحديث الشريف يؤيد التحريم أو يؤكد التحليل علماً، بأن الأحاديث التي نسبتها أو مصادرها وسلسلة إسنادها الأمر الذي يدفعنا إلى تأمل الموضوع بعمق والبحث في أدلة موضوعية أخرى توضح موقف الإسلام من فن التصويروآخذين بنظر الإعتبار التطور الزمني وما يترتب عليه من مظاهر حضارية في تأثيره في نشأة فن التصوير وما طرأ عليه من تطور تأريخي في واقع الحضارة العربية الإسلامية.

لقد عرف العرب قبل الإسلام التصوير. فعلى جدران الكعبة كانت ٣٦٠ صورة عندما فتحها المسلمون كما كانت هناك صور أُخرى على (الستور والثياب والخيام والأقداح والسلاح والنقود والألواح)

وربما كان لبقاء صورة المسيح وأُمه على جدران الكعبة حتى سنة ٦٨٣م معنى ديني كامن وراء تلك الصورة هو الذي أدى إلى بقائِها لكونها تمثل رمزاً مقدساً بالنسبة للمسيح وإن الصور الأخرى ليست بذات أهمية من الناحية الدينية والإجتماعية.

إن الأراء المتضاربة حول التحريم والتحليل جعلت المسلمين ينصرفون إلى إتقان الزخارف البعيدة عن تجسيد الطبيعة ويتفقون في بناء العمارة والزخارف وتزيين التحف بالرسوم الفنية والإبداع في الزخارف النباتية والهندسية كما إرتفعت مكانة الخطاطين والمذهبين والمشتغلين بإنتاج المخطوطات الثمينة.

التصوير في العصر العباسي:-

إن أقدم المصورات العباسية الجدارية منها ما وجد بحالة جيدة أو بقايا لوحات تحدد الأسلوب الذي كان متبعاً في رسمها. فقد أكتشفت البعثة الألمانية سنة ١٩١١م مجموعة من الرسوم التي كانت تزين جناح النساء وقاعة العرش والحمام في قصر الجوسق الخاقاني تضم أشكالاً آدمية وحيوانية ملونة باللون الأسود رسمت على الجص متضمنة مواضيع مختلفة منها راقصات وأُخرى تمثل حوريات البحر وطيور وحيوانات بين التفافات مكونة من أوراق الأكانثس ولكنا عوملت هنا معاملة قرون الرخاء الموجودة في قبة الصخرة وفي أسفل الصورة ذاتها خط مستعرض مكون من نقاط صغيرة كأنها حبات اللؤلؤ لها علاقة بتلك الموجودة في الدائرة التي أحاطت برأس المرأة في لوحة قصير عمرة.

أما أقدم المخطوطات العربية المصورة التي وصلت إلينا فهي تعود إلى القرن ١١م وقد أشارت بعض المصادر العربية إلى وجود مصورات للخليفة العباسي المأمون إجتمع على رسمها عدد من الحكماء صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه. كما ورد ذكر لكتاب كليلة ودمنة كان يملكه أحد القضاة ولكن لم ترد معلومات عمن قام برسمه أو عن طبيعة ذلك الرسم.

وقد كان للأقاليم التي قامت فيها مدارس التصوير الإسلامي أثر كبير في رسومها وذلك في بداية نشأتها ولكن هذه التأثيرات إختفت في القرنين الثاني عشر للميلاد والثالث عشر للميلاد حيث ظهرت تقاليد فنية موحدة سببها الإرتباط الوثيق بين الأقاليم الإسلامية وسهولة إنتقال الفنانين. وكانت أول مدارس التصوير هذه هي المدرسة العراقية.

المدرسة العراقية بالتصوير:-

وتُعد أساس المدرسة العربية في التصوير الإسلامي التي أثر أسلوبها في مراكز أُخرى للتصوير كالموصل وسوريا والمغرب والأندلس وقد إستمر إزدهار بغداد في هذا المجال حتى إستولى عليها المغول في القرن الثالث عشر الميلادي وبذلك إنفردت المراكز الفنية من العالم الإسلامي بأساليب أُخرى مختلفة عن أساليبها السابقة.

وقد نسبت إلى هذه المدرسة مجموعة من المخطوطات العربية التي تناولت المواضيع العلمية والأدبية والتي ترجمت عن اليونانية في الطب والعلوم الأخرى.

ومن المميزات الأخرى لهذه المدرسة بروز الطابع العربي المتميز لوجوه الأشخاص حيث تلوح عليهم مسحة عربية وتغطي وجوههم

لحي سود وأنف أقنى، وتميزت مصوراتها بالواقعية كذلك المبالغة في زركشة الملابس بالأزهار وبالطريقة الإصطلاحية في رسم الأشجار، وعلى الرغم من ذلك جائت بعض رسوم النبات تحاكي الطبيعة.

ويبدو الشفافية في رسوم العمائر حيث يظهر المصور ما يدور داخل الحجرمن خلال حذف الرسام للجدار الأمامي للحجرة، كذلك شفافية النهر حيث تظهر من خلاله الأشياء الموجودة فيه كالأسماك والمجاذيف، وقد مال الفنان في مصوراته إلى التسطيح وعدم التجسيم في الصورة كذلك لم يراعي المنظور فيها فكانت ترسم بمنظور من الأعلى وقد يظهر المنظور أحياناً في بعض رسوم المناضد والسلالم.